

في اسماعهم اضافوا شعيرة ، وفريق آخر كانوا يعدون عن طريق النظر ، اي كلما ابصروا في المصحف حرفا مكتوبا اضافوا شعيرة . وتظهر ثمرة الخلاف بين هؤلاء وهؤلاء حين نتذكر ان بعض الحروف تسمع ولا تكتب مثل كثير من الفات المد وبعض واوات المد وباءات المد والهمزات ... الخ . وان بعض الحروف تكتب ولا تسمع كهمزة الوصل والالف بعد واو الجماعة . الخ . ومن هنا يمكن ان نتصور وقوع الخلاف في العدد ، وان كان من المستبعد ان يصل ذلك الى عشرات الالاف .

غير ان الخلاف في جملة عدد الحروف لم يزعمنا بقدر ما ازعجنا وادهشنا ان يقع الخلاف بين الروايات في عدد كل حرف على حدة . فلم تنفق روايات كتاب البصائر الا في عدد الطاءات ، الظاءات . ولم تنفق مع روايات النسفي الا في عدد الظاءات فقط . واما ما جاء في الكشكول للعامري فلا يتفق في اي حرف مع روايات الفيروزابادي او النسفي . وقد اكتفى صاحب الكشكول بذكر الارقام ولم يضبطها بالكتابة ، ولذلك جاءت نموذجا عجيبا من الاضرابات والخلط .

وحيث نستعيد من الحروف تلك التي يحتمل في بعضها ان تكتب ولا تسمع ، او التي تسمع ولا تكتب كالالفات والهمزات والواوات والياءات ، وتكتفي بمقارنة العدد لكل حرف من الحروف الاخرى التي لا يصيبها شيء من ذلك ، لا نكاد نرى مسوغا لوقوع خلاف في عدد حروف كالرءات او الباءات مثلا !!

واذا استعرضنا مختلف الروايات حول اعداد الحروف لمسنا كيف ان القدماء من العلماء كانوا في شبه صراع مع عدد الحروف ، يبذلون الجهد ، ويحاولون التحقيق ما وسعهم ذلك ، لان الامر يتصل بالمعجزة الكبرى للاسلام ، ويكتاب الله الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم مع هذا لا يكادون يجمعون على رأي حاسم قاطع بصدد عدد اي حرف من القرآن الكريم الا الظاء .

وهناك صراع احصائي آخر نلحظه بين المتقدمين من اصحاب المعاجم ، فقد تبين لهم منذ عهد الخليلين احد ان عدد الكلمات التي يمكن عقلا او نظريا ان يتالف من حروف الهجاء الثمانية والعشرين يكاد يبلغ ، بل يجاوز حدود اثني عشر مليونا ، على اساس ان الكلمة العربية قد تكون ثنائية الاصول ، وقد تكون ثلاثية الاصول ، وقد تكون رباعية الاصول او خماسية الاصول . كمنا

عطاء بن يسار ثلاثمائة الف حرف وستون الفا وثلاثة وعشرون حرفا . (بالارقام : 300 023 ، 360 023) .

2 عن ابن مسعود انه قال : وحروفها ثلاثمائة الف حرف وستمائة حرف وسبعون حرفا . (300 670)

3 عن ابي معاذ النحوي : هو ثلاثمائة الف حرف واحد وعشرون الف حرف ومائتا حرف . (361 200)

4 عن عطار بن يسار : ثلاثمائة الف وثلاث وعشرون الفا وستمائة واحد وسبعون حرفا . (323 671)

5 حسبوا حروف القرآن فمرصوه على على مجاهد وسعيد بن جبير فلم يخطوهم . فبلغ ما عدوه : ثلاثمائة الف حرف وثلاثة وعشرون الف حرف واحدا وسبعين حرفا . (323 071) .

6 عن ابي حمزة الزيات وابي حفص الخراز قالا : حروف القرآن ثلاثمائة الف حرف وثلاثة وسبعون الف حرف ومائتان وخمسون حرفا . (373 250)

7 عن يحيى بن الحارث الذماري قال : عدد حروف القرآن ثلاثمائة الف حرف واحد وعشرون الف حرف ومائتا حرف وخمسون حرفا (321 250)

8 عن راشد ابي محمد وكان شهد الحجاج حين ميز القرآن قال : وحروفه ثلاثمائة الف حرف وعشرون الف حرف ومائة وثمانية وثمانون حرفا . (320 188)

وهكذا نرى ان هذه الروايات الثماني لم تتفق الا في رقم ثلاثمائة الف ، اي لم يبلغ الخلاف بينها حدود مئات الالوف ، ولكن بلغ حدود الالاف ، بل بلغ في بعض الروايات حدود عشرات الالاف !!

ويذكر القرطبي في تفسيره ثلاث روايات لجملة عدد الحروف في القرآن الكريم لا تشترك مع اي من الروايات السابقة . والارقام التي جاءت في روايات القرطبي هي : (321 180 ، 323 015 ، 340 740) .

ومع ما ذكره الفيروزابادي في تحليل ذلك الخلاف نود ان نضيف الى قوله ان الذين قاموا بالاحصاء فيما مضى كانوا فيما يبدو، فريقين : فريق كانوا يعدون عن طريق السمع ، اي كلما سمعوا من قارئ حرفا واتضح

تبين لهم أن عدد المستعمل من تلك الصور المحتملة لا يكاد يجاوز مائة ألف ، والباقي مهمل لا يرد في اللسان العربي .

وظهر أثر ذلك في المعاجم الأولى للغة العربية ككتاب العين المنسوب للخليل ، والجمهرة لابن دريد ، والتهذيب للأزهري ، ففي كل من هذه المعاجم تقرا - ولا سيما مع انجذور الثنائية والثلاثية - كلمتي المستعمل والمهمل لبيان ما ورد في اللغة وما لم يرد .

وحاول ابن جنبي في كتابه الخصائص (1) تفسيراً لاهمال ما أهمل من صور الجذور ، وجاءنا بما سماه الاستئقال !! فكثيراً ما يردد هذه الكلمة ، وكأنما قد تصور أن مؤتمراً قد عقد بين القاطنين باللغة العربية ، وأنهم اهتموا خلال مناقشات هذا المؤتمر إلى الحكم على استئقال الكثرة الغالبة من الجذور ، فكأن الأمر في تصوره كان أرادياً متعمداً ، فهو يردد في أحيان كثيرة قوله : إن العربي ينفر من اجتماع كذا مع كذا من الحروف !! ولما وجد أن بعض الجذور المهمة لا يتسم بالاستئقال أو ما يشبه الاستئقال مثل المادة « لجع » قال عنها إنها أهملت حملاً على ما أهمل من تراكييب الرباعي والخماسي !!

فلنستمع إلى نص كلام ابن جنبي في الخصائص :
(أما اهما ل ما أهمل مما تحتمله قسمة التراكيب في بعض الأصول المتصورة أو المستعملة فأكثره متروك للاستئقال ، وبقية ملحقة به ومقفاة على اثره ، فمن ذلك ما رفض استعماله لتقارب حروفه مثل : « سص » ، ظس ، ظك ، ظظ ، ضس ، ضك ، ضظ ، وهذا حديث واضح لنفور الحس عنه والمشتقة على النفس لتكلفه ، وكذلك نحو « قج ، جق ، قق ، فك ، كج ، جك » . وكذلك حروف الحلق هي من الائتلاف أبعد لتقارب مخارجها عن معظم الحروف أعني الفم ، فان جمع بين اثنين منها قدم الأقوى على الأضعف نحو : « أهمل ، أحد ، أخ ، عهد ، عهر » . وكذلك متى تقارب الحرفان لم يجمع بينهما إلا بتقديم الأقوى منهما نحو : « أول ، وتسد ، وطد » . ويدل على أن الراء أقوى من اللام أن القطع عليها أقوى من القطع على اللام ، وكان ضعف اللام إنما أتاهما لما تشرب به من الفنة عند الوقوف عليها !! وكذلك لا تكاد تعتاص اللام ، وقد ترى إلى كثرة اللثغة في الراء في الكلام . وكذلك الطاء والياء هما أقوى من الدال ، وذلك لأن جرس الصوت بالياء والطاء عند

الوقوف عليهما أقوى منه وأظهر عند الوقوف على الدال وأنا أرى أنهم إنما يقدمون الأقوى من المتقاربين من قبل أن جمع المتقاربين يشغل على النفس ، فلما اعتمروا النطق بهما قدموا أقواها لأمرين : أحدهما أن رتبة الأقوى أبداً أسبق وأعلى ، والآخر أنهم إنما يقدمون الأثقل ويؤخرون الأخف من قبل أن المتكلم في أول نطقه أقوى نفساً وأظهر نشاطاً فقدم أثقل الحرفين وهو على أجمل الحالين كما رفعوا المبتدأ لتقدمه فأعربوه بأثقل الحركات وهي الضمة ، وكما رفعوا الفاعل لتقدمه ونصبوا المفعول لتأخره ... الخ .)
إلى أن يقول ابن جنبي في آخر هذا الفصل : (وتخطوا بذلك إلى اهما ل بعض الثلاثي لا من أجل خفاء تركيبه بتقاربه نحو : « سص ، صس » لكن من قبل أنهم حذوه على الرباعي كما حذوا الرباعي على الخماسي ، إلا ترى أن « لجع » لم يترك استعماله لثقله من حيث كانت اللام أخت الراء والنون ، وقد قالوا : « نججع فيه ، رجع عنه » ، واللام أخت الحرفين ، وقد أهملت في باب « اللجع » فدل على أن ذلك ليس للاستئقال) انتهى كلام ابن جنبي !!

وكلما مررنا بتلك الإشارات السريعة التي نصادفها في ثنايا كتب القدماء من المستعمل والمهمل من جذور اللغة ، أو عن توالي الحروف وما يجتمع منها وما لا يجتمع ، أحسنا أنهم كانوا في شبه صراع رهيب ومحاولة يائسة لعلمهم يصلون إلى نسبة صحيحة في الإحصاء أو الاستقراء . فإذا روي عن الخليل أنه قال : (ليس في كلام العرب شين بعد لام ولكن قبلها ، كلها قبل اللام) ، رد عليه الأزهري قائلاً : (وقد وجد في كلامهم الشين بعد اللام ، قال ابن الأعرابي وغيره : رجل « لشلاش إذا كان خفيفاً » ، ثم يروي لنا بعض المعاجم أيضاً كالقاموس المحيط للفيروزآبادي أن الفعل « لشا » معناه خس بعد رفعه !!

ومن الإشارات السريعة التي جاءت في كتب القدماء بصدد نسبة شيوخ الحروف في اللغة العربية قول ابن دريد في مقدمة معجمه الجهمزة (وأعلم أن أكثر الحروف استعمالاً عند العرب : الواو ، الياء ، الهمزة ، وأقل ما يستعملون لثقلها على سنتهم : الطاء ، ثم الدال ، ثم التاء ، ثم الشين ، ثم القاف ، ثم الخاء ، ثم الفين ، ثم النون ، ثم اللام ، ثم الراء ، ثم الباء ، ثم الميم) !!

تفصيلا ما جاء في عروس الافراح للسيبكي (2) ،
ونقتبس هنا بعض فقراته :

(تنبيه : رتب الفصاحة متقاربة ، وان الكلمة
تخف وتثقل بحسب الانتقال من حرف الى حرف لا
بلائمه قريبا او بعدا) .

ثم يذكر المؤلف الحالات الست للجدر الثلاثي
على اساس ان الحرف قد يكون مخرجه من الطلق
كالعين مثلا ، او مخرجه من الفم كالادل مثلا ، او
مخرجه من الشفتين كالباء مثلا . فالحروف الثلاثة
ع ، د ، ب ، يمكن ان يتألف منها ست صور هي :

ع د ب ، ب د ع ، د ب ع ، ع ب د ، د ع ب ،
ب ع د . ثم يتحدث المؤلف عن اكثر هذه الصور
شيوعا واقلها شيوعا فيقول ما نصه : (اذا تقرر هذا
فاعلم ان احسن هذه التراكيب واكثرها استعمالا ما
انحدر فيه من الاعلى « يريد حرفا مخرجه الحلق » الى
الاوسط « يريد حرفا مخرجه الفم » الى الادنى « يريد
حرفا مخرجه الشفتان » (3) ، ثم ما انتقل فيه من
الاوسط الى الادنى الى الاعلى ، ثم من الاعلى الى الادنى
الى الاوسط ، وما انتقل فيه من الاوسط الى الاعلى
الى الادنى فهما سيان في الاستعمال وان كان القياس
يقتضي ان يكون ارجحهما ما انتقل فيه من الاوسط الى
الاعلى الى الادنى . واقل الجميع استعمالا ما انتقل
فيه من الادنى الى الاعلى الى الاوسط) . انتهى كلام
عروس الافراح . والمؤلف في كل الحالات السابقة
يريد بقوله الاعلى حرفا مخرجه الحلق ، وبالادنى حرفا
مخرجه الشفتان ، وبالاوسط حرفا مخرجه الفم .

واخيرا وليس آخرا تلك الضوابط المشهورة
التي عني بها امثال « الجواليقي » في كتابه « المعرب
من الكلام الاعجمي » ، والشهاب الخفاجي في كتابه
« شفاء الفليل » حين يشار في هذين الكتابين الى ما
يمكن ان يعد علامات لتمييز الكلمة العربية من الكلمة
الاعجمية وهي :

(1) لا تجتمع الجيم والقاف في كلمة عربية ، الاصل ،
ولذلك تعد كلمة مثل « المنجنيق » من الالفاظ
الاعجمية .

واهم ما نلاحظه على اشارة ابن دريد المقضبة
انها لم تتضمن الا نصف حروف الهجاء ، وان النسخ
المخطوطة لهذا المعجم قد اختلفت في شأن حرفين
من الحروف المذكورة هنا ، فبعضها يذكر الدال بدلا
من الذال ، ويذكر العين بدلا من العين !!

واما الجاحظ فبرغم كثرة مؤلفاته وضخامتها لا
نرى له سوى سطر واحد في البيان والتبيين يقرر فيه
ان : الباء ، اللام ، الالف ، الراء ، اكثر الحروف ترددا
من غيرها ، وان الحاجة اليها اشد !! ثم يذكر لنا كيف
اهتدى الى ذلك في تعبير طريف يقول فيه : (واعتبر
ذلك بان تأخذ عدة رسائل وعدة خطب من جملة خطب
الناس ورسائلهم ، فانك متى حصلت جميع حروفها
وعددت كل شكل على حدة علمت ان هذه الحروف
الحاجة اليها اشد) !!!

وجاء في مقدمة لسان العرب لابن منظور : (واما
تقارب بعض الحروف من بعض وتباعدها فان لها سرا
في التعلق يكشفه من تعناه كما انكشف لنا سره في
حل المترجمات لشدة احتياجنا الى معرفة ما يتقارب
بعضه من بعض . فان من الحروف ما يتكرر ويكثر
استعماله وهو : ا ، ل ، م ، ه ، و ، ي ، ن . ومنها ما
يكون تكراره دون ذلك وهو : ر ، ع ، ف ، ت ، ب ،
ك ، د ، س ، ق ، ح ، ج . ومنها ما يكون تكراره اقل
من ذلك وهو : ظ ، غ ، ط ، ز ، ث ، خ ، ض ، ش ،
ص ، ذ . ومن الحروف ما لا يخلو منه اكثر الكلمات
حتى قالوا ان كل كلمة ثلاثية فصاعدا لا يكون فيها حرف
او حرفان منها فليست بعربية وهي ستة احرف :
ر (1) ، ب ، م ، ن ، ل ، ف . ومنها ما لا يتركب
بعضه مع بعض اذا اجتمع في كلمة الا ان يقدم ، ولا
يجتمع اذا تأخر وهو : ع ، ه ، فان العين اذا تقدمت
تركبت واذا تأخرت لا تتركب ، ومنها ما لا يتركب اذا
تقدم ويتركب اذا تأخر وهو : ض ، ج ، فان الصاد اذا
تقدمت تركبت واذا تأخرت لا تتركب ، ومنها ما لا
يتركب بعضه مع بعض لا ان تقدم ولا ان تأخر وهو :
س ، ث ، ض ، ز ، ظ ، ص ، فاعلم ذلك) .

واما اشهر ما عرف عن علماء البلاغة بهذا الصدد
فنراه في اثناء حديثهم عن التعقيد اللفظي ، واكثره

(1) ذكرت في المعجم على انها « دال » ومن المؤكد انه تصحيف .

(2) شروح التلخيص ج 1 ص 94 ، 95 .

(3) لعل هنا نقصا في النص وتكلمته « او عكسه من الادنى الى الاوسط الى الاعلى » .
وهذه التكملة لكن تتمم الصور الست للثلاثي .

(2) لا تجتمع الصاد والجيم فى الكلمات العربية ،
فمثل « صولجان » مما اقترضه العرب ، وكذلك
كلمة « الجص » .

(3) لا تقع النون وبعدها راء فى اللفظ العربي ، فمثل
« نرجس » كلمة اعجمية .

(4) لا تكون الزاي بعد دال فى كلمة عربية ، فمثل
« مهندز » كلمة اعجمية ، وهى الكلمة التسي
تغيرت فيما بعد حتى صارت على الصورة المألوفة
الآن « مهندس » .

(5) لا تجتمع الزاي او الذال مع السين ، فكلمة
« ساذج » معربة عن الفارسية .

(6) لا تقع الطاء مع الجيم فى كلمة عربية ، ولذلك
عدت كلمة « الطاجن » اعجمية .

(7) لا تخلو الكلمة العربية حين تكون رباعية الاصل
او خماسية الاصل من حرف من حروف الذلاقة
وهى : اللام ، الراء ، النون ، الميم ، الفاء ، الباء ،
فيما عدا كلمة « عجد » بمعنى الذهب .

اما بعد : فازاء كل ما تقدم هنا من بصوص وردت
فى كتب القدماء كنت الى عهد قريب اشعر بالدهشة
والحيرة ، واتمنى لو اتاحت لنا فرصة لاعادة الاحصاء
والاستقراء عن طريق تلك الآلات الحاسبة الحديثة
التي اشتهرت باسم العقل الالكتروني او «الكومبيوتر»

ثم حانت الفرصة فى العام الماضي حين دعمتني
جامعة الكويت لزيارة كانت برغم قصر زمنها ، مباركة

فى نمارها . فقد اتصلت باستاذ الفيزياء المصري
والمعار لجامعة الكويت الدكتور علي حلمي موسى
وكنت اعلم انه من امهر المتخصصين فى استخدام
الكومبيوتر . وعقدنا معا عدة جلسات علمية شرحت
فيها فكرة الاحصاءات اللغوية واهميتها فى البحث
اللغوي ، ثم كان ان اتفقنا على البدء بدراسة احصائية
لجذور اللغة كما جاءت فى معجم الصحاح للجوهري .

ورضع استاذ الفيزياء ما يسمى فى استخدام
الكومبيوتر بالبروجرام ، وشحن ذاكرة الكومبيوتر
بنصوص المعجم ، ثم استملى ذلك الجهاز العجيب
فاملى عليه نتائج احصائية رائعة نسقت فى عشرات
من الجداول ، وبذلك تحقق ذلك العمل العلمي الرائد
الذي سعدت بان يكون لي فيه حظ التوجيه والارشاد .

وطبعت جامعة الكويت تلك النتائج الاحصائية
فى كتيبين تحت عنوان « دراسة احصائية لجذور
مفردات اللغة العربية » ، ووزعتها على كل اعضاء
المجامع اللغوية فى العالم العربي ، وعلى اقسام اللغات
والرياضيات فى الكليات الجامعية .

وهكذا نرى ان اصحاب العلم الحديث قد قالوا
كلمتهم بصدد الاحصاء اللغوي ، وبقي علينا نحن
اللغويين ان نفيد من تلك الاحصاءات فى بحوثنا ، ولا
اشك لحظة فى ان اللغوي الحديث سيهتدي عن طريق
تلك الاحصاءات الى تفسيرات جديدة واصيلة لكثير
من ظواهر لغتنا العربية ، واعمل الآن جاهدا رجاء
الاهتداء الى بعض آثار الكومبيوتر فى البحث اللغوي .
وبالله التوفيق .

وكان لذلك طبيعيا ان يموت بعضهم بالسل والاسقام،
وينتحر بعضهم كذلك : فقد قضى (تاركيتي)
بالسل وعمره ثمانية وعشرون عاما ، وقضى
(كامبرانا) منتحرا ، ومات أشهرهم (براغا) صغير
السن لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره .

عند ظهور هذه المدرسة المسلوقة - أو فلنقل
« المسطولة » ! - كان فيرغا في حدود الثلاثين من
عمره، وفي عز انتشارها كان قد وصل الى فلورنسا،
ثم انتقل قبل وفاتها الى ميلانو - مهد هذه الحركة
وقبرها - وفي هذه الفترة جاءت أعماله الادبية
مزيجا مضطربا من اثر الواقعية الفرنسية ، والتمردية
الفوضوية الميلانية - مدرسة ذوي الشعور
الشمث - . وهذه الاعمال التي انتجها فيرغا هي :
(خاطئة - Una Peccatrice) و (حكاية بلبل -
Storia di una capinera) والنمر الملكي -
(Tigre Reale) و (ايسروس Eros)
و (حواء Eva) .

وعلى الرغم من ان فيرغا قد وضع هذه
الروايات بعيدا عن الارض الصقلية ، وفي وسط
المدن الشمالية الكبيرة الملائم بالنشاط والحياة ، الا
انه كان يعيش بروحه في ارضه الصقلية ، ومنها ظل
يستمد الهامه وشخصه وصوره . وعلى الرغم من
النجاح الذي لقيه هذه الروايات ، فانها لم تبلغ
السمت الفني الذي كان فيرغا يتوق الى تحقيقه .
ولم يهتد الى حقيقته الفنية الا حين سلك سبيل
الواقعية الادبية ، فهناك رسخت شهرة فيرغا بين
عمالقة الادب الايطالي ، ولاسيما حين ظهرت رواياته
الشهيرتان (I Malavoglia) (Mastro Don Gesualdo)
المستمدتان من واقع الحياة الصقلية الكادحة ،
المذعنة للقدر الرهيب ، وحين أصبح شخصه ممن
يدعوهم باسم المغلوبين - Vinti) لان الاقدار هي
التي تسيروهم بارادتها دون ان يكون لهم فيها رأي ،
ولا في تبديلها يد .

ولا في تبديلها يد؛ بدأت الفترة الجديدة في حياة فيرغا
الادبية بقصة عنوانها Nedda ظهرت عام 1874 ، ثم
تلاها بعدد من المجموعات القصصية الواقعية الاخرى
في كتبه التالية: (حياة الحقول - Vita dei campi)
1880 ، و (خبز اسود - Pane nero) 1882 ،
و (افاصيص قروية - Novelle rusticane)
1883 و (في الطرقات - Per le vie) وغيرها .
الا ان فيرغا بلغ الذروة في روايته (أسرة -

بمزايها الإيجابية ، واستسلامهم الى الالم والبؤس،
ودفاعهم عن الشرف ، وما الى ذلك . وهذه الزايات
كلها نجدها مصورة أدوع تصوير في آثار فيرغا
الادبية المستمدة من الحياة الصقلية الشعبية
الكادحة ، المستلما الى المصير المحتوم .

فمن هو جوفاني فيرغا هذا ؟

ولد فيرغا في مدينة كاتانيا ، في صقلية ، عام
1840 ، وتوفي في عام 1922 ، بينما ولد زميله
كابوانا - وهو ايضا من كاتانيا - قبله بعام واحد ،
اي عام 1839 ، وتوفي قبله بسبعة اعوام ، اي عام
1915 .

ولقد احس فيرغا منذ حداثة بميل شديد الى
الاداب ، وبحاجته الى بيئة تساعد على تغذية ميله
هذا . وفي عام 1865 غادر صقلية الى فلورنسا
حيث وجد البيئة التي يريد . فاقام فيها مدة ،
ثم انتقل منها الى ميلانو ، وهناك بدأت حياته
الادبية بدايتها الجديدة . فاقام في ميلانو الى ان عاد
منها عودته النهائية الى مسقط رأسه - كاتانيا -
حيث توفي عام 1922 .

في الفترة التي بدأ فيها فيرغا حياته الادبية
كانت الحركة الادبية الواقعية واسعة الانتشار في
فرنسا واوروبا ، وكانت قد ظهرت كذلك حركة
ادبية جديدة في مدينة ميلانو نفسها ، اطلق على
اصحابها اسم (ذوي الشعور الشمث) وبالاطالية
(Scapigliati) - وهي اشبه بحركة الخفافس،
او الهيبين في يومنا هذا - فهي مدرسة تمردية ،
قليلة الانصار ، قصيرة العمر جدا : اذ لم يزد عدد
كتابها وشعرائها البارزين على الستة ، وهم :
(Giuseppe Rovani) مؤسس هذه الحركة
وزعيمها ، و (Iginio Tarchetti) و
(Giovanni Camerana) و (Carlo Dossi) و
(Emilio Praga) وهذا أشهرهم ، وأخيرا
(Arrigo Boito) . اما عمر هذه الحركة فلم
يزد على عشر سنوات (من 1860 الى 1870) .

لقد اراد هؤلاء الروائيون والشعراء الشبان ان
يتمردوا على مثالية المدرسة الرومنسية وحساسيتها
المفرطة ، ولكنهم انغمسوا كل الانغماس في حياة
فوضوية بوهيمية ، وفي الكفر بالله والانسان
والوطن والفن ، وبكل المثل العليا في الحياة ،
ومضوا يشدون النسيان في تعاطي الخمر والافيون .

هذه الفقرة اخترتها من كتاب (تاريخ النقد الفيرغوي - (Storia della critica Verghiana) لصديقي الكاتب الإيطالي (Giorgio Santangelo) الاستاذ في كلية الآداب في جامعة باليرمو . وكنت قد قرأت هذا الكتاب النفيس قبل ان اشروع في دراسة آثار فيرغا ، لكي يساعدني على فهم هذه الآثار الادبية فهما صحيحا . والحقيقة انه افادني كثيرا بان اطلعني على آراء العديد من النقاد الإيطاليين في فيرغا وأدبه ، حتى لقد خيل الي انه لم يبق جانب من جوانب فيرغا الفنية الا اشيع درسا وتحليلا .

وحين عكفت على دراسة روايتي فيرغا الكبيرين (اسرة مالا فوليا - والمعلم السيد جيزوالدو) وجدت ان هناك نقطتين جديرتين بالنقاش والتحليل رغم كل ما قاله النقاد في اعمال فيرغا الادبية . وانا في هذه المعجاة اقتصرت على هاتين الروايتين وحدهما من بين انتاج فيرغا كله .

النقطة الاولى تتعلق بالحمية القدرية (Fatalismo) التي يراها النقاد في آثاره ، والتي اراها انا بطولية ورجولة ، لا خنوعا لقدر محتوم لا يمكن قهره .

ويبدو لي ان هذه الحمية التي يراها نقاد فيرغا قد اصبحت لديهم ماركة مسجلة بالنسبة الى اعماله الادبية ، ولاسيما الواقعية منها ، فهو عندهم لا يعرف الا بها .

وحين تذكر هذه الحمية ينصرف ذهننا الى قطمان بشرية مدعنة لمسيرها المحتوم : تسير بعيون مغمضة ، ورؤوس منحنية خنوعا ، ولا تدري - او لعلها لا تملك ان تدري ، او تسال - ان كانت تساق الى المسلخ ام الى المرعى ، لان ارادتها مشلولة ، ومسيرها مخطوط منذ الأزل في لوح القدر من نقطة انطلاقها حتى النهاية .

ولكن هل كان كذلك حقا ابطال فيرغا ؟ (اكرر هنا أنني اتحدث عن «اسرة مالا فوليا ، وجيزوالدو» بنوع خاص لثلا ازيد الموضوع اتساعا ، واطلق الجناحين اكثر مما يجب) .

فلنحاول ان نأتي نظرة سريعة على كل من هاتين الروايتين لكي نصل من ذلك الى حيث نضع اصابعنا في موضع الجراح من اولئك (الابطال) الذين يابى فيرغا الا ان يدعوهم باسم (المفلويين ، او المهزومين - (Vinti) :

مالا فوليا - والمعلم السيد جيزوالدو) ، وقد ظهرت الاولى عام 1881 ، والثانية 1889 . ويمكن ان تضاف اليهما روايتان اخريان ، هما : (زوج الينا - (Il marito di Elena) عام 1882 ، و (من حصتك على حصتي - Dal tuo al mio) عام 1906 .

في هذه الروايات انصرف فيرغا قبل كل شيء الى النظر الى الانسان في عفوية احساسه واعماله ، والى الدنيا في الاعيب الاقدار العجيبة وتحكمها بمصائر البشر . فهو شديد العطف على الضعفاء ، والمعتهين ، والمفلويين على امرهم الذين يحنون رؤوسهم لمشيئة القدر المستبد ، يتفهمهم بعطف عميق حتى في اخطائهم .

وقد اهتدى فيرغا اذن الى نفسه ، اذ عاد بروحه وقلمه من دنيا القصور الباذخة والحياة المترفة في المدينة الصاخبة ليستروح عيبر ارضه انصقلية ، ويعيش مع شعبه ، ويتذوق طعم الخبز البيتي اللذيذ . لقد افلحت الواقعية في ان تجعله يعيش بسلام مع نفسه ، ويستمد فنه مما كان يعيش في اعماق نفسه من بيئته الصقلية الاولى .

صحيح ان معاصري فيرغا كانوا قد استقبلوا رواياته واعماله الادبية بشيء من البرود وقللة الاهتمام ، غير انه ما كادت تميل شمس الواقعية الى الغروب ، وتصبح شيئا من حصاة التاريخ الادبي ، حتى اصبحت تلك الروايات والاقاصيص مشار الاعجاب الواسع لدى القراء والنقاد ، واخذت مكانتها الرفيعة بين روائع الآثار الادبية الكلاسيكية .

— * —

« ان فيرغا اليوم واحد من اوسع الكتاب شهرة وذبوعا في الادب الإيطالي .. وعلى الرغم من تغير الظروف التاريخية لا يزال اكثر ما يكون حياة في ضمير الاجيال الجديدة التي تعتبره الكاتب الذي مجد اعظم الاخلاق الانسانية نقاء ، والمجد الاكبر لقداسة الحياة ، ولنضال الرجولة اليومي للبقاء .. واغانيه تظل ضمن نطاق الانسانية ، الا انها تسمو على انسانيتهما بتحمل الالم برجولة حقة . هذه هي رسالة فيرغا الاجتماعية : فالاب نتونسي هو رمز للعظمة الانسانية السامية التي تعرف كيف تؤلف بين شريعة الحياة المتألمة وشريعة الله » .

2 - المعلم السيد جيزوالدو -
MASTRO DON GESUALDO

كان جيزوالدو بناء ، وابن قروي يملك فرنا
لنجير (مشيدة) . ناضل نضالا عنيدا منذ طفولته
ضد يؤس الفقراء وفاقتهم : « حمل الكثير من
الحجارة على منكبيه .. وقضى العديد من الايام دون
خبز » (ص 76) . لقد عمل اجيرا ، وبناء ،
وعديدا من الحرف الاخرى ، ولكنه كان دائما مصمما
على الانتصار على ظروفه الاليمة ، والتغلب على
عناد الاقدار . وبفضل عمله المتواصل دون ملل او
تعب استطاع ان يتغلب على الظروف المسيرة ، وان
يقترن بفتاة تدعى (بيانكا تراو - Bianca Trau)
كانت الاخيرة من اسرة نبيلة خفض الزمان جناحها .
غير ان هذا الزواج ، الذي فرضته على الطرفين
المصالح المادية وليس الحب المتبادل ، يصبح بداية
لمصائب خطيرة ، ثم يفضي الى الدمار . والثمرة
الوحيدة لهذا الزواج ، وهي الابنة ايزابيلا ، تعيش
بعيدة عن ابيها الذي تخجل من اصله الوضيع ، ثم
تصبح زوجة لاحد دوقات باليرمو . وتموت الزوجة
(بيانكا) بالكوليرا ، ويصاب جيزوالدو نفسه
بالسرطان ، فيقضى ايامه الاخيرة في قصر زوج
ابنته في باليرمو ، ويموت بعد ذلك وحيدا يائسا بعد
ان يرى ضياع الثروة التي جمعها بكده وعرقه
المتواصلين جميعا ، والتي كانت اعز عليه من حياته .
وتقول الرواية انه « هناك ، امام الثروة التي يملكها ،
اقتنع بأنه انتهى حقا ، وان كل امل له قد ضاع ..
انه يود لو يستطيع ان يدمر بضربة واحدة كل الثروة
التي جمعها شيئا فشيئا . يود لو امكن ان تذهب
املاكه معه ، قانطة يائسة مثله ! » (ص 347)

في البداية تستولي اخت جيزوالدو وزوجها على
املاكه وثروته ، غير ان زوج ابنته لا يلبث ان يستولي
على كل شيء رغم احتجاج الشيخ جيزوالدو
المحتضر الذي « كان بطنه منتفخا كالتربة ..
والانياب الكلبية في داخله تنهش كبده نهشا »
(338)

— * —

في هاتين الروايتين نلاحظ كيف جعل فيرغا
الجمعية القدرية تسيطر من البداية الى النهاية ، او
هكذا ارادها ، لان فيرغا يرى « ان الناس - اختيارا
كانوا ام اشرازا - يجشم عليهم كابوس محتوم
صارم - كما يقول باسكواله لامانا في الجزء الثالث

1 - اسرة مالا فوليا : MALAVOGLIA

في هذه الرواية لدينا عدة ابطال ، غير ان
الرئيسيين منهم ثلاثة ، هم : السيد نتوني -
والدار ، وتدعى باسم « دار الزعرورة »
Casa del nespolo والمركب ، ويدعى باسم
« العناية » (Providenza) . وتتألف اسرة
مالا فوليا من : الشيخ نتوني ، والابن باستياناسو .
والكنة ماروتسا (Maruzza) وتدعى ايضا
(La Longa) ، وكذلك من الاحفاد (نتوني -
لوكا - مينا Mena - اليسندر) ويدعى ايضا
مصفرا ، اليسى - ثم ليا) . انها اسرة من صيادي
الاسماك يحاول افرادها ان يتعاونوا فيما بينهم على
العيش من مهنة واحدة . وفي احدى السنين العجاف
يحاول السيد نتوني ان يتغلب على الفقر والجوع
بتجارة انترمس (Lupini) ولاجل ذلك يستدين
من احد المرابين (واسمه كروتشيفيسو) خمسمائة
ليرة . غير ان عاصفة نهب على المركب فتفرقه مع
حملة - من الترمس ، ويفرق معهما كذلك الابن
باستياناسو . اما المركب فينتشل ويعاد اصلاحه
للعمل من جديد ، واما الدين فيظل دون تسديد
رغم كل المحاولات والجهود التي يبذلها الشيخ نتوني
وسائر الاسرة . واخيرا تضطر الاسرة الى التخلي
عن الدار العزيرة - دار الزعرورة - ثم عن المركب -
العناية - لتسديد الدين . وحين تتجرد الاسرة من
الدار والمركب تأخذ المصائب في التوارد عليها :
تموت الكنة بالكوليرا ، ويقضي الحفيد لوكا في معركة
بحرية ، والحفيد الاخر نتوني ، بعد ان يخدم في
الجندية ، يعود الى البطالة ، وينغمس في اعمال
التهرب ، وبالتالي يدخل السجن ليقتضي فيه خمس
سنوات في القيود لظنه ضابط الحرس في اثناء
معركة ليلية بين حرس الجمارك والمهرين . وبعد
ذلك تغادر الحفيدة ليا المنزل ولا يعود احد يراها .
ويموت كذلك الشيخ في احد المستشفيات بعد ان
اثقلته السنون والمصائب معا . والحفيدة (مينا)
لا تجد زوجا بسبب المصائب المتلاحقة التي تنصب
على بيت مالا فوليا ، فتتصرف الى العناية باخيها
الاصغر (اليسى) واسرته . واليسى هذا هو
وحده الذي يتزوج جارة له تدعى (نونسيانا -
Nunziata) ويتمكن من استعادة الدار التي كان
استردادها آخر امنية للجد قبل احتضاره . وبعدئذ
يخرج الحفيد نتوني من السجن ويمضي بعيدا الى
حيث لا يستطيع احد ان يعرفه .